بودلير كما يراه سارتر

ترجمة العفيف الاخضر

ليست هذه الدراسة القصيرة لسارتر مما يقرأ من نافذة قطار . فالسهولة التي يؤخذ بها اكثر القراء ، ويدعو لها بعض الكتاب ومنهم طه حسين خطيئة فكرية ، تناقض الفكر الحضاري وتلغيه . والكسالى فقط يرفضون ، بعذر او بآخر ، ما لا يتفق وأطارهم الذهني المحدود الافاق ، انهم لا يتكلفون الجهد . والثقافة الحقة ليست الا الجهد الخالق المتعب، ليست الا عملا بطوليا وانتحاريا في آن .

والمفكر ـ لا المتظاهر بالتفكير ـ يناضل ضد كل ما يجعل حياة الناس اكثر تعاسة وحياته الخاصة تعاسة كلية ، وضد كل ما يجعل الانسان أقل انسانية ، وهو في الغالب ، يرزح تحت طائلة ظروف قهرية تعريه ، وان في الظاهر ، من الانسانية .. وهو في النهاية من يناضل الموت النوعي وهو على موعد شخصي مع الموت في كل لحظة . المفكر هو المناضل . والنضال والجهد صنوان . اما الذين يرفضون كل «مجهول» يكأفهم مشقة التوتر الفكري.فهم ـ قراء كانوا او كتابا ـ شواهد الضلالة الثقافية والحضارية . وثمرة الوهم الذي اتخذوه ، من البدء ، قاعدة انطلاق ، وهذه الدراسة السارترية كفيلة باشعار القارىء العربي بمدى تقصير كثير منا في ذات الثقافة وفي دراسة شعرائنا وكتابنا حاضرين وغابرين على هذا النحو من العمق والفذاذة .

وهذه الدراسة نادرة وجديدة نسبيا في الفكر الاروبي ، واظن انها من اختصاصات سارتر وهي ما يسميه بالتحليل النفسي الوجودي وذلك يعني ان سارتر لا يهتم في حدود هذا الفن بالظاهرة الادبية بل بالظاهرة الانسانية ، هو لا يؤخذ ـ مثلا ـ بنقد الشعر بل بالشاعر نفسه . فاذا كانت حياة كل انسان « صفقة » فالذي يهم سارتر اولا هو اكتشاف ما اذا كانت رابحة او خاسرة . وهو هنا يحلل بعمق فذ ـ على ما قد يكون فيه من اخطاء ـ السرطان الداخلي الذي جعل حياة بودلير صفقة خاسرة ـ وجوديا ـ وهو هذه العبادة الحمقاء لنفسه ، ونموذج بودلير ـ الانسان ـ لا ـ الفنان ـ هو نموذج اكثرنا نحن الشباب العربي ـ على الاقل من اعرف منهم ـ والنرجسية تفوح من اكثر ما يكتبون : في هذه الصورة المقتلعة التي يقدمون بها الوجود ، في مصادقة « الانسان » ما دام منظورا للاستعمال الجنسي ، ورفضه في لحظة حاسمة يعرفون فيها انهم خسروا ـ الصيد ـ ، خسران الحب اي خسران المضاجعة يعني سر بطلان الوجود ، وانه لكذلك لمن تعرى وجودهم من القيم ، وتمحصوا للمطاردة و « الاصطياد » . وذلك آت من المراهقة العقلية والجنسية مجتمعتين ، ممن كان منتظرا منهم ان يتجاوزوها الى الرشد والبطولة في الفكر والفعل معا .

وبودلير مات مراهقا وقد اناف على الخمسين : الحب هو الفيروس السرطاني ، وجد بودلير ككل حب ـ وهذا ما أغفله سارتر ـ سلبه الفعالية ، وعراه من كل هم انساني لا يمر بقنوات الازمات الجنسية ، ومهما يقنعها التفلسف ليلحقها بازمات التصدع الكياني ، فرائحة الجنس تفضحها . ازمات الضمير توزع ، بين المغامرات والرعب ، حيث لا شيء مضمون ، والامن على الحياة اعز ما يفتقد . وبهذه فحسب ، اذا كنا ، عقليا ونفسيا ، في مستواها نساهم في دفع عجلة التقدم الانساني ، في ميدان او في آخر . اما ازمات الشبق مكشوفة او مقنعة فشيء آخر ، نوعا ودرجة ، لا يدفعه الى امام ولا حتى الى خلف ، انها فقط شاهد على السلب والخسران . ومفلسفو هذه الازمات ليسوا الا حيوانات امية تحيا على هامش الوجود الحقيقي ويسوؤها ان يعيش المتزمتون فعلا بازمات كيانية مزمنة في صميم الوجود الدامي ـ المترجم .

***

الوضع الاساسي لبودلير هو وضع انسان مفتون بنفسه تماما مثل نرجس . ليس له اطلاقا حس مباشر يمكن النفاذ اليه بنظرة حادة ، نحن يكفينا ان نرى الشجرة او البيت لنستغرق كليا في تأملها ، وننسى انفسنا . اما بودلير فهو الرجل الذي لا ينسى نفسه ابدا . انه الذي ينظر الى مرآته يشاهد نفسه ليراها تنظر الى نفسها ، اما بودلير فهو على العكس يتأمل ضميره في الشجرة وفي البيت ، والاشياء تبدو له من خلال وجودها الفعلي اكثر شحوبا واتفه شأنا واقل حرارة وتأثيرا كما لو كان يشاهدها بمنظار يجعلها اصغر جدا مما هي في الواقع . الاشياء لا يدل بعضها على بعض ، كما يدل السهم على الطريق والعلامة على الصفحة ، ولذلك فعقل بودلير لا يضل في متاهاتها . على العكس وظيفة الاشياء الاولية ان تمكنه من الاحساس بنفسه ، ان ترسل الوعي اليه . الم يكتب يوما : « ماذا يهمني هذا الذي يمكن ان يكون الواقع خارج ـ انا ـ ما ابالي به اذا كان يساعدني على ان احيا واشعر بانني موجود واعرف من انا» . وفي ذات فنه،همه ان لا يظهرنا على الاشياء الا من خلال وعي انساني كثيف ، اذ يحدثنا في ـ فن الفلسفة ـ : « ما هو الفن المحض ـ وفاقا للمفهوم العصري؟ هو ابداع صورة سحرية موحية تشتمل الموضوع وفاعله في آن ، العالم الخارجي ثاويا في الفنان ، والفنان بالذات» على نحو يمكنه بشطارة من ان يتحدث على الجزئيات في واقع العالم الخارجي ، عند بودلير التعلات والانعكاسات ، والشاشات ، والمواضيع لا تساوي في حد ذاتها شيئا على الاطلاق ، وليس لها من وظيفة اخرى الا ان تهبه الفرصة ليتملى ذاته بينما هو ينظر اليها .

هناك مسافة اساسية بين بودلير والعالم تختلف عن التي لنا نحن .. بين بودلير والاشياء تتسلل على الدوام شفافية غائمة بعض الشيء ، وعبقه بعض الشيء ، كأنها تموج هواء ساخن . كأنها الصيف . وهذا الضمير المرقوب المعرى والذي يشعر بانه موجود بينما هو ينجز عملياته الاعتيادية يضيع دفعة واحدة تلقائية و « طبعيته تماما مثل طفل يمثل تحت عيون الكبار . وهذه « الطبعية » التي فقتها بودلير بقدر ما أسف عليها لا اثر لها عنده ، ولم يتمكن منها على الاطلاق : اذ كل شيء في عالمه مفتعل لانه يمر

تحت الانظار ، حتى اقل الخواطر ، أضأل الرغاب تولد في الضوء ، تحت الرقابة والاحصاء ، ومن يذكرون قليلا المعنى الذي اعطاه هيجل للفظ المباشر Immédiat يفهمون بان تفرد بودلير العميق كامن في انه الانسان الذي يفتقد الذاتية المباشرة L'immédiaté ولكن اذا كان هذا التفرد يساوي شيئا عندنا نحن الذي نشاهده من الخارج فانه عند بودلير الذي يلاحظه من الداخل يفلت منه كليا . لقد كان يبحث عن طبيعته ، اعني مزاجه وكينونته ، ولكنه لم يشاهد غير استعراض مديد رتيب لاحواله . لقد حز في نفسه ما رآه من فذاذة الجنرال اوبيك او امتياز امه، فلماذا لم يكن له من سبيل للاستمتاع باصالته الخاصة ؟ ذلك انه ضحية وهم طبيعي جدا من شأنه ان يجعل باطن انسان يتحطم على ظاهره . لم يكن لبودلير هذه الصفة الممتازة التي تجعل الاخرين يلمحون سيماءها ، وليس لها من اسم في لغته الباطنية ولم يكن له بها من عهد في واقع الحس او واقع العرفان . ترى ايستطيع ان يستشعر نفسه روحيا وفكريا ؟ هل يستطيع كذلك أن يعرف ما اذا كان مبتذلا او ما اذا كان ممتازا ؟ وهل في مقدوره ان يتثبت من حدة ذكائه ومداه ، وليس له من تخوم غير نفسه ، شرط الا يتناول قرص خدر يبطىء لهنيهة جريان افكاره ؟ اما افكاره وخلجاته بالتفصيل فهي متوقعة ، معروفة من قبل ان تظهر وشفافة من اي النواحي اتيتها ، فهي بالنسبة له « بعد مكشوفة » و « جد معروفة » انها الفة لم تعد تنعش ، انها طعم الذكرى . انه مشغول بنفسه ، مفتون بها ولكن نفسه ليست الا تفاهة ، شيئا بلا طعم ، رطوبة جليدية ، عريت من المثابرة والمقاومة فلم يعد بودلير يقوى على الملاحظة ولا على الحكم ، بلا ظلال وكذلك بلا اضواء ، انه ضمير هذاء لا يفتأ يوشوش لنفسه ولا يبين ، لقد تلاحم ونفسه والح في الالتحام ليفضي بها لرؤية ذاتها على افضل الوجوه ، ليقودها في النهاية الى الرؤية الكلية وهو يرى نفسه مليا ، بكل هذا الافراط ، ليغوص فيها وفي خويصة نفسه يتلاشى .

ومن هنا تبدأ الفاجعة البودليرية : تخيلوا الشحرور الابيض وقد اصبح اعمى — والوضوح مهما تعاظم يضارع في النهاية العمى — لقد اخذ عليه عقله كله هذا البياض اللامع الممتد مع جناحيه ، هذا الفتون الذي تراه جموع الشحارير وتتحدث اليه فيه ، وهو الوحيد الذي اعياه ان يعرف . ومن ثم كان ذكاء بودلير العظيم مجهود استرجاع ، ينبغي له ان يسترد نفسه — وبما ان النظر امتلاك — ليراها ولكن لتحقيق هذه الرؤية ينبغي وجود اثنين ، ناظر ومنظور . فبودلير يرى يديه وساعديه لان العين متميزة من اليد : ولكن العين لا حياة لها في رؤية نفسها ، انه يشعر بوجوده ، يرى نفسه ، ولكنه لم يتعلم كيف يبتعد بقدر كاف ليتمكن عن بعد من تقدير نفسه . وعبثا يصرخ في ازهار الشر :

راسا لراس دجنة وصفاء
فيا لقلب قد غدا مرآته

وهذا « الراس لراس » الذي ما كاد يرتسم حتى يتلاشى ليس في الحقيقة الا راسا لا اثنين . ومجهود بودلير يوجد ليدفع الى النهاية القصوى هذا المخطط المجهض من ازدواجيته التي تعي وعيه الانعكاسي . واذا كان ذكيا من البدء فلم يكن ذلك ليقرأ حسابا مدققا لاخطائه ولكن ، فقط ، ليكون اثنين ، واذا كان يطمح الى ان يكون مزدوجا فذلك ليحقق في هذا القران الامتلاك النهائي للانا بواسطة الانا . سوف يغضبه ذكاؤه ، سوف يحز في نفسه : ان لم يكن الا شاهده الخاص . وسيحاول ان يكون جلاد نفسه : ذلك ان التعذيب يعقب عمليا زوجا محكم الارتباط وفي غمرة هذا الاندماج العميق يستحيل الجلاد الى مجلوده . فاذا لم يفلح في ان يرى ذاته فلا أقل من ان يتفحصها مثلما يتفحص الخنجر الجرح رجاء ان يدرك قراره البعيد ذاك الذي يشكل طبيعته الحق كجرح :

انا الجرح والمديه
انا المدان وجلاده

وهكذا فالعذابات التي ساطها على نفسه تشير الى الامتلاك : الذي يفضي الى اللحم مأسورا بين الاصابع ، لحمه الخاص ، الذي لا يعترف به الا في غمرات الالم وبمشهد الجروح النازفة . وبالالم نستطيع ان نمتلك ونخلق كما نستطيع ان نخرب سواء بسواء .

والوشيجة التي تشد المجلود الى جلاده وهذا الى ضحيته وشيجة جنسية : ولكن بودلير — مع ذلك — حاول بلا جدوى ان يحلها من حياته في الصميم ، بينما هذه الرابطة — الجنسية — لا معنى لها الا بين اثنين متميزين متباعدين ، وكذلك حاول ان يحول الوعي الانعكاسي الى سكين والوعي التأملي الى جرح : وهما معا على نحو من الانحاء يشكلان وحدة غير مجزوءة ، كلا ! لا يستطيع المرء ان يحب نفسه ولا ان يكره نفسه ولا ان يعذب نفسه : اذ الضحية والجلاد معا يتلاشيان في ليل بهيم ، عندما يغدوان بنفس عمل ارادي واحد كالتالي : احدهما يطلب والاخر يوقع العذاب . وبحركة عكسية ولكنها تبيت نفس الغاية ،

شعر

من منشورات دار الاداب

قرارة الموجة	نازك الملائكة
وجدتها	فدوى طوقان
وحدي مع الايام	فدوى طوقان
اعطنا حبا	فدوى طوقان
عيناك مهرجان	شفيق معلوف
قصائد عربية	سليمان العيسى
الناس في بلادي	صلاح عبد الصبور
مدينة بلا قلب	احمد عبد المعطي حجازي

دار الاداب
بيروت — ص.ب ٤١٢٢

اراد بودلير ، رياء ، ان يكون شريكا لوعيه التأملي ضد وعيه الانعكاسي : عندما انهى استشهاده ـ عملية الخسارة ـ كان يجرب ان ينذهل هو بالذات . وسوف يفتعل العفوية المزعجة ، ويتظاهر بالتخلي عن نفسه لاعنف الاهواء واعراها عن التبرير كل ذلك لينتصب امام عيانه الخاص كموضوع، كشيء كثيف وغير محسوب في حساب، وقصارى القول فيه انه اراد يكون شيئا آخر غير ما هو اياه. ولو كان له ما اراد لكانت النتيجة تكون افضل من نصف ما حصل : وكان يمكن ان يستمتع بنفسه . ولكن ، هنا ايضا ، لن يكون الا ما كتب ، الا ما يفعله .

ويمكن القول بأنه يحزر مشروعه حتى قبل ان يتصوره : فلقد ارتأى قبليا وحدد مفاجأته ، لقد كان يجري وراء الانذهال ، انذهاله الخاص ، دون ان يبلغ من ذلك ما يريد .

بودلير هو هذا الانسان الذي شاقه ان ينظر الى نفسه كما لو كان « آخر » ، وحياته ليست الا قصة هذا الاخفاق .

ذلك انه بالرغم من الحيل التي نسجت المحيا الذي اتخذه امام اعيننا للابد ، فهو يعرف حقا ان نظره الثاقب لا شيء غير الموضوع المنظور اليه ، وانه ابعد ما يكون على ان يظفر بامتلاك فعلي لنفسه وقصاراه الارتشاف البطيء لها ، وهذا ما يعطي وعيه الانعكاسي طابعه .

لقد اضناه الضجر وهذا الضجر : عاطفة عجيبة شاذة هي مأتى كل متاعبه ومصدر جميع امراضه وتقدمه البائس ، وهذا ليس بالحادث العرضي ، ولا كما كان يزعم احيانا ، ثمرة خموله وقريحته المكدودة وانما هو الضجر المحض من العيش ، هذا الذي تحدث عنه فاليري Valéry ان الذوق الذي للانسان ، لخاصة نفسه ، وهو ضروري ، انه طعم الوجود .

« انا غرفة مهجورة تملأها زهور ذاويه
ثم .. ايان ترقد اشتات من الطرز البوالي
هنالك .. حيث الشجيرات الشاكية والجزار
بمفردهم يتنشقون رائحة عطر مراق » .

هذه الرائحة الخفيفة التي ذهبت بحدتها الايام ، هذه الرائحة المزعجة والتي لا تكاد تبين ، وعلى مهل وبفظاعة ايضا تتبدى ، هي اصدق رمز للوجود من اجل ـ الانا ـ . والضجر هو الاخر عاطفة ميتافيزيقية ، والمنظر الداخلي لبودلير والمادة الازلية التي جبلت منها افراحه ومتاعبه . ودونكم الان تحولا جديدا طرأ عليه : لقد تولاه الحدس بان فذاذته صورية ، وقد فهم انها قدر شائع بين كل احد ، وعندئذ تكرس بكل قواه ابتغاء ان يكتشف طبيعته الخاصة ومزاياه الفريدة التي تستطيع ان تجعل منه انسانا بلا بديل ، فذا في العالمين . فماذا كان ؟ .. لم يلق عبر البحث اللاهف على الفذاذة لا طابعه الخاص الذي ينشد ولكن اشتاتا بلا هوية من الوجدان الجماعي . الكبرياء واللقانة والضجر لا تخلق غير واحد ، لم تعقب جميعا في اعماقه وبرغمه الا هذا « الواحد » ترى ماذا ؟ وجدان كل الناس ، كل احد يعطف على نفسه ، ويدمن على معرفة نفسه ، ويتكرس لاناه .

باريس — العفيف الاخضر

قريبا :

سلسلة القصص العالمية

وفيها تقدم دار الاداب اروع ما كتبه كبار ادباء العالم من القصص الطويلة والقصيرة .

انتظروا الحلقة الاولى :

قصص سارتر

في كتاب واحد ضخم يضم القصص التالية :
الغثيان ـ الجدار ـ الغرفة ـ ايروسترات ـ صميمية ـ طفولة قائد ـ صداقة عجيبة

نقلها عن الفرنسية
الدكتور سهيل ادريس

والحلقة الثانية :

قصص كامو

في كتاب واحد ضخم يضم القصص التالية :
الغريب ـ الزوجة الخائنة ـ الجاحد ـ البكم
الضيف ـ جوناس ـ الحجر الذي ينبت

ترجمة
عايدة مطرجي ادريس

منشورات دار الاداب